رغم كل شئ

مجموعة عبد القادر حميدة

نقد : يوسف الشاروني

تتكون هـذه المجموعة القصصية من تسع قصص ، نستطيع أن نلمح بسهولة خصائص مشتركة بينها ، حتى لكأنها مستمدة من تجربة واحدة اراد كاتبها أن يعبر عن جوانبها المختلفة أو أن يستوعبها ويسيطر عليها وهو يكتب القصة بعد القصة .

من هذه الخصائص أن أكثر القصص تقع احداثها فى قرية بالقرب من دمنهور ، واحيانا قليلة فى دمنهور نفسها ثم فى القاهرة كما فى قصة « **أقوى من الحب** » أو فى الأسكندرية كما فى قصة « **رغم كل شىء** » . وفى القصص التى تقع أحداثهـا فى القرية تبدو مدينة **دمنهور** كأنما هى الحلم أو المنقذ للعاطلين والبؤساء من أهل القرية، فهم دائما يشدون رحالهم نحوها عندما تضيق الأمور فى وجوههم فى القرية .

أما الخاصية الثانية المشتركة فهو الشكل القصصى ، فالقصص لا تبـدأ من بدايتها الزمنية ، بل من منتصفها ثم تعود ترتد الى زمن مضى لنستأنف تتبعنا لما جد من أحداث . فالبداية هى دائما نقطة بين الماضى والحاضر . فأغلب قصص المجموعة تبدأ بتعطل أصحابها عن العمل ثم ترتد الى الوراء لنعرف أسباب هذا التعطل ثم ما نلبث أن نستأنف تتبعنا لما جد من أحداث أو نتائج . ولعل الوظيفة الفنية التى يؤديها هذا الشكل ، هو انه يضع امامنا أولا أهم ما يريد الكاتب أن يكشف لنا عنه، فنحن نجابه بصلب الموضوع أولا ثم بأسبابه وأخيرا بنتائجه .

أما الشخصيات فيتشابه كثير منها أيضا ، بعضها يتشابه فى الاسم مثل **مبروك الشرقاوى ويوسف الدكرورى** فى قصتى « **سعدية** » و « **النـاس لبعضهم** » ومثل « **رشدى** » فى قصتى « **الليلة السابعة** » و « **حدث ليلتها** » ، وبعضـها يتشـابه فى الوظيفة مثل وظيفة **ناظر الزراعة** فى قصتى « **سعدية** » و « **الناس لبعضهم** » ، واكثرهم يتشابهون فى التعطل عن العمل أو فيما يصيبهم من أمراض مثل الشلل . بل ان تكوين الأسرة فى أكثر القصص متشابه ، فصورة الأسرة التى تنطبع فى ذهن القارىء بعد الانتهاء من قراءة المجموعة عبارة عن أسرة عائلها مريض او مفقود ترك وراءه زوجة وابنا او اثنين أحدهما كبير يمكن أن يحل محل والده والآخر صـغير ما يزال فى حاجة الى الرعاية .

لهذا كله يحس قارىء المجموعة أنها تصدر عن تجربة واحدة تعددت محاولات التعبير عنها . الا أن أهم الخصائص المشتركة لتلك القصص التى تضمها هـذه المجموعة يدل عليها عنوانها « **رغم كل شىء** » والاهداء الذى جاء فيه « **الى كل بسمة**

تشرق على فم الانسان برغم كل شيء » فقصص المجموعة تدور حول صراع الانسان ضد ظروف تبدو اقوى منه ، ولكنه رغم هذا لا يستسلم بل انه احيانا ينتصر . وهى ظروف تمليها أسباب اجتماعية حينا ويلتحم فيها القدر بالمجتمع حينا آخر. فالموت أو المرض حدث من أحداث القدر ، ولكن ان يصيب الموت أو الشلل عائل الأسرة فان ذلك تترتب عليه نتائج اجتماعية بالنسبة لمن يعولهم . لهـــذا فالموتى والمرضى فى قصص هذه المجموعة هم دائما ممن تترتب على ما يصيبهم من كوارث ، كوارث اخرى لغيرهم .

فى **القصة الأولى** قصة « **سعدية** » نجد **محمود** الزوج متعطلا عن العمـــل لان زوجه الحامل اشتهت ان يحضر لها جوافة من حديقة العمـــدة التى كان يعمـل بستانيا بها ، فضبطه العمدة وطرده . لهذا فهو لم يجد اجر الدابة عندما ولدت زوجته ابنته التى أطلق عليها اسم « سعدية » ويفكر فى قتل العمدة لولا انه يعرف من أسراره ما هو كفيل من ان يذله به . وعندما ضبطه يتسلل من الكشك الذى تنام فيه الخادمة « **ست أبوها** » تنفس من اعماقه ، فقد ضبطه متلبسا بسرقة اخطر من سرقة بعض ثمار الفاكهة لزوجته الحامل .

وفى قصة « **الليلة السابعة** » نجد ان الزوج لم يفقد عمله فحسب بل انه ما لبث ان فقد حياته ايضا فى حادث اشبه ما يكون بالانتحار . لهذا فالقصة ــ بدلا من أن يتلقاها القارىء من زاوية الزوج المتعطل كما فى القصة السابقة ــ فانه يتلقاها من زاوية ابنه الطفل رشدى وزوجته مسعودة .

وفى قصة « الأب » تجد الأب يصاب بالشلل فيتعطل وبالتالى يتعطل ابنـــه عن الدراسة ليبحث عن عمل ، ويقع عليه عبء اعالة والده المريض ووالدته وأخيه الصغير ، حتى يجد عملا كخفير فى محلج ، وبالرغم من هذه الظروف يواصـــل دراسته حتى ينجح فى التوجيهية ، ثم يلتحق بكلية الحقوق بينما يعمل فى الوقت نفسه بمدرسة خاصة حتى تخرج وتزوج وأنجب . وعندما مات أبوه كان ابنه **هشام** يشب باعوامه الخمسة يحاول ان يرى جده .. جيل يذهب وجيل يقبل وتيار الحياة مستمر .

وفى **القصة « أقوى من الحب »** نجد بطلها **محمود** تخطب له امه ــ بعد خلاف مرير مع ابيه ــ ابنة اخيها **ســعاد** ، وهو ما يزال طالبا . وفجأة يصاب الأب بالشلل ــ كما فى القصة السابقة فيتعطل عن عمله ويقع على كاهل الابن هنا ايضا عبء اعالة الأسرة : ويحاول ان يتخلص من خطيبته لأنه لا يحبها ولأن ما جـــد عليـــه من ظروف لا يساعده على اتمام هذا الزواج ، لكنه لا يتخذ خطوة حاسمة ، ثم يتزوجها ويقع فى هوى امراة أخرى ، ورغم كل ذلك ما تلبث الألفة أن تتغلب فى النهاية على نزوة الحب .

وفى قصة « حدث ليلتها » يتعطل الأب عن العمـــل ، لكنه يتعطل هذه المرة لأنه كان يثير التلاميذ ضد **معاهدة صدقى ــ بيفن** فيلقى به فى السجن ، وكان على الابن الأكبر أن يتولى اعالة امه واخيه الأصغر ، وكما أن الطفل فى قصـــة « **الليلة السابعة** » كان نائما فلم يشهد أباه وهو يودع امه ليترك القرية متجها الى **دمنهور** بحثا عن عمل ، حتى انه كان ينتظره كل ليلة ولا يعرف انه مات تحت عجلات

القطار ؛ كذلك فان الأخ الصغير فى قصة « **حدث ليلتها** » كان نائما أيضا فلم يشهد القاء القبض على ابيه ، ولكنه عرف من استاذ له بالمدرسة ما اخفاه عنه اخوه وامه .

وفى قصة « **الناس لبعضهم** » يتعطل الأب **هنا أيضا** لأنه طالب مالك الأرض التى يعمل ناظرا لزراعتها بزيادة أجره . ورغم أن زوجته كانت مريضة فى حاجة الى ثمن العلاج الا انها كانت تعارض فى أن يقبل زوجها ما يقدمه له الفلاحون من هدايا وهم فى حاجة اليها ، ولهذا طالب صاحب الأرض بزيادة أجره فطرده . وكانمـــا اراد الفلاحون أن يردوا الجميل للزوجه التى تريد لزوجها الا يمس املاكهم ، فقاموا بمظاهرة طالبوا فيها بارجاع ناظر الزراعة الى عمله وتخفيض ايجاراتهم ، وعندما **استجاب الباشا** للمطلب الأول اكتفوا بذلك على أن يتم النظر فى المطلب الثـانى فيما بعد . وبعد مضى سنوات طوال تعطل الأب من جديد بشلل اصابه ثم ما لبث أن مات تاركا وراءه ــ كما راينا فى اكثر من قصة ــ زوجة وابنا كبيرا وآخر صغيرا .

أما القصة الأخيرة التى اطلق عنوانها على المجموعة فالوالد فيها لا وجود له من بداية القصة ؛ والمريض هذه المرة هو الأم ، ومرض الأم يعرض ابنها لامتحان عسير ، فهى تحتاج الى دواء ثمنه ليس فى جيب ابنها ، ووظيفة ابنها تتيح له ان يرتشى اذا اراد ، لكنه رغم ظروفه ــ **برغم كل شىء** ــ يتغلب على نفسه وعلى ما يعرض له من اغراء .

ولعل أجمل قصص المجموعة قصة **أيام الحرب** ، وبالرغم مما يبدو للنظرة الأولى انها تختلف فى موضوعها عن بقية القصص الا ان النظـــرة المستانية ما تلبث أن تكشف الموضوع الواحد المشترك بينها وبين القصص الأخرى . فهى تتنـــاول علاقة عاطفية تمت فى سن مبكرة ثم وأدتها الظروف لتعود وتسيقظ من جديد بعد ثمانية عشر عاما . **وطبقا للشكل الذى ساد قصص المجموعة ، تبدأ القصة بالتقاء ممدوح بمحاسن صديقة طفولته فى روضة أطفال بالدقى بعد ثمانية عشر عاما من فراقهما ، ثم ما تلبث أن ترتد الى أيام الحرب العالمية الثانية حين هاجرت اسر من الاسكندرية الى دمنهور ومن بينهم الطفلة محاسن وأمها ، أما الوالد فهو ــ كما فى قصص أخرى بالمجموعة ــ قد مات بسبب الحرب** . وتنمو علاقة عاطفية بين الفتى والفتاة غير ان الحرب ما تلبث ان تنتهى فتقطع هذه العلاقة بعودة **محاسن** وامها الى **الأسكندرية** حيث تصاب **محاسن** بقنبلة من مخلفات الحرب لتطيح بذراعهـا اليمنى . وتعود الى الحاضر فيفاجأ كل منهما بأن الآخر قد اطلق اسمه على طفله ، **محاسن** أطلقت اسم **ممدوح** على طفلها **وممدوح** اطلق اسم **محاسن** على طفلته . وتختتم القصة **ومحاسن** تصافحه بذراعها اليسرى وهى تقول « **الا ترى ان هناك علاقة كبيرة بين الحرب والحب** » كلاهما ينتهى لكنهما يتركان آثارهما علينـــا . وكان الكاتب يقول لنا انه برغم هذه السنين ، برغم ان كلا منهما تزوج وانجب ، برغم هذه الظروف فان الحب قد طبع آثاره على كل منهما ممثلة فى طفليهما كمـــا طبعت الحرب آثارها على محاسن فبترت ذراعها اليمنى .